

ما كتب في هذا الموضوع (عاطفياً) بكل معنى الكلمة . كان أكثرها مرآتي تندب حظ فرنسا ، وتظهر أسفاً شديداً ، وحزناً عميقاً على السكارة التي حلت بها ؛ وكان بعضها يغالى في الرثاء ، إلى أن يبلغ به درجة البكاء ...

غير أن هذه المرآتي قبولت بمعارضة شديدة ، فقد حمل عليها بعض الكتاب حملات عنيفة وقالوا : كيف يجوز لكتاب عربي أن يبكي على فرنسا وينسى ما فعلته بالقسم الأعظم من البلاد العربية ؟ كيف يجوز لفكر عربي أن يرثى النكبة التي حلت بفرنسا وهو يعلم أنها كانت من أهم العوامل التي أزالت أكبر النكبات بالأمة العربية وبخاصة بعد الحرب العالمية ؟ احتدم الجدل بين الفريقين ؛ وحاول كل فريق أن يبرر حسن 'عواطفه' بمقالات حارة ، أودع فيها كل ما أوتي من قوة البلاغة والبيان ...

أنا من الذين يعتقدون أن الكتابات العاطفية تعبر عن نفسية كتابها الشخصية وخوارجهم الذاتية ، فلا تتحمل المناقشة مناقشة علمية ... غير أن أصحاب المرآتي لم يكتفوا بإظهار عواطفهم وتثيتها ، بل أخذوا يدافعون عنها ويدعون إليها ، وحاولوا أن يدعموها ببعض الآراء والنظريات السياسية والاجتماعية ..

فإذا جاز لنا أن نسكت تجاه « العواطف الشخصية » ، فلا يجوز لنا أن نلتزم مثل هذا السكوت تجاه الآراء والنظريات التي صارت تنشر لتبرير تلك العواطف ...

لقد قال البعض « يجب أن نميز بين فرنسا الأدبية المتمدة وفرنسا السياسية المستعمرة » ، كما قال آخرون : « يجب علينا أن نفرق بين عمل الساسة وعمل الأمة كلها ، فلا يجوز أن نعتبر الشعب الفرنسي مسؤولاً عن أعمال حكامه ..

فلننعم النظر في الآراء التي تتضمنها مثل هذه الأقوال .. ولنفكر جيداً : هل يمكن التمييز بين فرنسا الأدبية المتمدة وفرنسا السياسية المستعمرة تمييزاً حقيقياً ؟

أنا لا أقول بذلك أبداً ... لأن الأدب الفرنسي نفسه لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص . بل بعكس ذلك انبرى لخدمة تلك السياسة

حول انهيار فرنسا لأستاذ عربي كبير

—>>><<<—

حينما انهارت فرنسا أحدث انهيارها المفاجئ هزة أرضية عالمية ، دعش لها من دعش ، وابتهج بها من ابتهج ، وبكى منها من بكى . وكان الشأن بكتاب العرب يومئذ وهم الذين اکتبوا طويلاً بنار الاسعار الفرنسي أن يتنفسوا الصعداء بزوال هذا الكابوس ، ولكنهم انقادوا للتوازع الانسانية والأدبية فيهم فكاتبوا يرثون فرنسا ويرثون لها وسقطون عليها إلا هذا الكاتب المفكر الكبير فإنه عارض هذه التزعة وعالج الموضوع على ضوء الحقائق المجردة والوقائع الثابتة . ولم تنهأ لنا القرفة يومئذ لنسر هذه الآراء القبية ، فنشرها اليوم بمناسبة المناسبة السورية فإنها جرة متقدمة من تلك النار ، وأثر سئ من آثار ذلك الانهيار ..

... أخذ عدد غير قليل من الكتاب العرب يتبارون في نشر المقالات ونظم الأشعار ، حول هذا الانهيار ، وكان معظم

* في ج ١٠ ص ١٣٩

أستطبل الفصاحة من النعم ، والصباحة من النعم ؟

قلت : من الأغم . والنعم كما جاء في الصحاح أن يسيل الشعر حتى تضيق الجبهة أو القفا ، ورجل أغم ، وجبهة غماء ، قال هدية بن الخثرم :

فلا تنكحني إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأزعا والأثرع الذي ينحسر شعر مقدم رأسه مما فوق الجبين كما في النهاية . وفي اللسان : وامرأة زعاء ، وقيل : لا يقال زعاء ، ولكن يقال زعمراء . وفي صفة علي (رضى الله عنه) البطيخ الأثرع^(١) . والعرب تحب الزرع وتتمن بالأنزع ، وتذم النعم ، وتشاءم بالأغم ، وتزعم أن الأغم القفا والجبين لا يكون إلا لثما ، ومنه قول هدية : البيت . وفي (الكامل) : النعم كثرة شعر الوجه والقفا ، وأورد البيت ، ثم قال : والعرب تكره النعم .

(١) وقيل معناه الأثرع من الشرك الملوه البطن من السلم والايحان (النهاية) ..

بكل الوسائل الممكنة. وقد كتب الأدباء عدداً لا يحصى من مقالات والخطب والأشعار والقصص والروايات التي تمجّد الاستثمار وتربّه في النفوس، وتحتّ على الاستثمار وتحبّبه إلى القلوب...

إن دلائل ذلك تظهر للعيان من خلال جلسات الأكاديمية الفرنسية أيضاً. لأن هذه الندوة الأدبية العليا قد حرصت كل الحرص على أن تختار بعض أعضائها من بين رجال السياسة والجيش، كما اختارهم أحياناً من بين صناديد الاستثمار. وهؤلاء لم يتجردوا من نزعاتهم السياسية والاستثمارية عند دخولهم قاعة اجتماع تلك الندوة حتى إنهم لم يترددوا أحياناً في اتخاذ تلك القاعة منبراً للإجماع آرائهم الاستثمارية في خطب أدبية رائعة.

ولعل أقرب وأوضح الأدلة على ذلك كان انتخاب المارشال (ليون) عضواً في الأكاديمية المذكورة. ومن المعلوم أن هذا المارشال يعتبر من أكبر رجال الاستثمار، فقد لقبه الفرنسيون بلقب «الإفريق» - تقليداً لما فعله الرومان في القرون الأولى، عندما خلّعوا مثل هذا اللقب على (اسجسيون) بعد تمكنه من تدمير قرطاجنة. إن الأكاديمية الفرنسية انتخبت المارشال ليون عضواً بها، أفتردون ماذا كان موضوع «خطبة القبول» التي افتتحت حياته الأكاديمية وفقاً لتقاليد الندوة الأدبية المذكورة؟... كان موضوع الخطبة «الاستثمار»... أقرأوا الخطبة المذكورة تجدوها قطعة أدبية رائعة في مدح الاستثمار وتمجيده... إنها تشرح فوائد الاستثمار المادية والمعنوية بأسلوب حار بليغ، وتدعو إلى «الإيمان» بضرورته لحياة فرنسا! «لأن الاستثمار - مصدر هام للقوة والثروة، ومنبع لا ينضب للجيش، وساحة تدريب وتكوين للقواد... ولأن الأمم المحرومة من المستعمرات تكون جانحة إلى الركود والجمود الروحي...»

أعتقد أن هذه الخطبة من أبرز الأمثلة والأدلة على تدخل وتشابك الأدب والاستثمار؛ فلا يجوز لنا إذن أن نقول بوجود التمييز بين «فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية الاستثمارية» بوجه من الوجوه.

وأما إذا قيل: «إن القصد من التمييز البحوث عنه، هو (تقدير الأدب الفرنسي) في حد ذاته، بقطع النظر عن السياسة

الفرنسية والاستثمار الفرنسي»، فأننا أسلم بصحة هذا الرأي، غير أنني أقول بلا تردد: إذا كان الأمر كذلك، فلا بدني داع ولا ميرر للرائء... لأن «الأدب الفرنسي» ظل خارجاً عن حدود النكبات؛ فإن النكبة التي نحن بصدها حلت بالدولة الفرنسية والجيش الفرنسي لا بالأدب الفرنسي... لأن انهيار الجيش لا يستوجب انهيار الأدب، والاندحار في ميادين الحرب والسياسة لا يستلزم الاندحار في ميادين الأدب والثقافة... إنني أستطيع أن أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل فأقول: «إن مثل هذه النكبات قد لا تخلو من الفائدة إلى الأدب، لأنها قد تكون منبتاً خصباً للإنتاج الأدبي. فإن الآلام والأفراح تكون - بوجه عام - أفضل من الأفراح في إثارة المواطن، وتوليد الأدب الرائع...

وعلى كل حال فإن نظرية التمييز بين فرنسا الأدبية وفرنسا الاستثمارية لا تستند على أساس قويم من هذه الوجهة أيضاً. وأما القول في وجوب التفريق بين الشعب والحكام وعدم اعتبار الشعب مسؤولاً عن أعمال الحكام... فهو غريب جداً، ولا سيما بالنسبة إلى فرنسا التي تفخر وتباهى بالديمقراطية والجمهورية والإدارة الشعبية...

أنا لا أنكر أن الحكام قد يستطيعون في بعض الأحوال أن يجروا شعبهم إلى الاتجاه الذي يريدونه؛ غير أنني أعتقد أن ذلك الاتجاه لا يمكن أن يستمر طويلاً إذا لم يأت موافقاً لنزعات الشعب ويجد هوى في أمياله النفسية...

ومن المعلوم أن «الاستثمار» لم يكن من الحوادث العارضة في تاريخ فرنسا... بل إن تاريخ الاستثمار هناك طويل وطويل جداً؛ حتى أن بدء الاستثمار الفرنسي للبلاد العربية نفسها يعود إلى أكثر من قرن. فإن فرنسا بدأت حملتها على الجزائر سنة ١٨٣٠ وقد مضى على ذلك التاريخ قرن كامل مع عقد من السنين... غيرت فرنسا «نظام حكمها» - خلال هذه المدة أربع مرات بل خمساً، انتقلت من الملكية إلى الجمهورية، فالإمبراطورية، ثم عادت إلى الجمهورية. والآل أخذت تجرب شكلاً جديداً من نظام الحكم... مع هذا لم تنحرف عن سلوكها الاستثماري طوال هذه المدة وخلال هذه النظم

مواطنيهم ، ونحسدون بصراحة بعض الأمم من جراء الوازع الشخصي المبحوث عنه ...

وأما تمت فرنسا « ببث النور ومهد الاختراعات » واعتبار الفرنسيين أرقى شعوب الأرض على الإطلاق ، فإن كان ذلك من الدعاوى التي كان يمكن الدفاع عنها في دور من أدوار التاريخ ، فقد أصبح من القضايا التي لا يمكن التسليم بها في الدور الذي نميش فيه الآن ...

لقد فتد الفيلسوف الإنكليزي الشهير « هربرت سبنسر » الأسطورة القائلة « بتفوق الفرنسيين » على جميع شعوب الأرض في « المدخل » الذي كتبه لعم الاجتماع ، قبل نحو مبعة عقود من السنين ، وانتقد انتقاداً لازعاً المبالغات المفرطة التي كانت تلقب فرنسا بلقب « محبرة الأمم » ، والتي كانت تدعى بأن اندراس باريس يعنى انطفاء مشعل المدنية .

انا لا أشك في أن مثل هذه المبالغات التي استثارت انتقادات هذا الفيلسوف عندئذ ، قد أصبحت أشد بعداً عن الحقيقة الآن ، وأجدر بالانتقاد الشديد في هذا الزمان .

لا أنكر ان فرنسا كانت أرقى بلاد العالم في دور من أدوار التاريخ ؛ هذا الدور هو العهد الذي يمتد بين أواسط القرن السابع عشر وأواخر الثامن عشر ، وأعرف أن البعض من المفكرين الذين استعرضوا تاريخ أوروبا استعراضاً فلسفياً ، ولاحظوا تتابع دور الاقطاع ودور الانبعاث « قد سمو الدور الذي نحن بصددده باسم « الدور الفرنسي » ؛ غير أنني أعرف أيضاً أن ذلك الدور قد مضى وانطفئ في أغوار التاريخ منذ مدة طويلة ؛ لأن حالة أوروبا وحالة العالم تبدلت تبدلاً هائلاً خلال القرن التاسع عشر ، فلم تستطع فرنسا أن تحتفظ بمزدها السابقة بين هذه التبدلات والتقلبات العالمية الهائلة . أنا لا أود أن أقول : ان فرنسا تأخرت منذ ذلك الحين ؛ غير أنني أقول أن أمماً ودولاً أخرى قامت ونهضت وتقدمت بسرعة هائلة منذ ذلك العهد فأخذت تتسابق مع فرنسا تسابقاً عنيفاً في جميع ميادين التقدم والرقى ... وقد لحقها في معظم الميادين ، بل سبقها في بعض الميادين . فقد خرجت الحضارة المصرية من سيادة فرنسا المعنوية منذ مدة غير قصيرة ، ففقدت فرنسا بذلك مكانتها السابقة بصورة قطعية .

المختلفة . فإمها آمنت استعمارها للجزائر بحيث شتى الانقلابات السياسية ، واستولت على تونس سنة ٨٨٢ ، وبسطت حمايتها على مراكش سنة ١٩١١ ، واستولت على سورية ، وآمنت استعمارها للمغرب الأقصى بعد الحرب العالمية ... وقد توالى خلال هذه المدة الطويلة عدة أجيال ، ونشأ وتنازع في غضونهما عشرات الأحزاب ، وتولى الأمر فيها عشرات وعشرات من الحكومات المتضاربة النزعات ... ومع كل هذا ، لقد ظل « العمل الاستعماري » هو هو ، دون أن يتوقف أو يتغير من جراء تبدل نظم الحكم ، أو تعاقب الحكومات وتوالى الأجيال ... فلا يجوز لنا أن نسلم بأن « الاستعمار الفرنسي » من أعمال حكام فرنسا ، فلا يعتبر الشعب الفرنسي مسؤولاً عنه ... »

هذا ، ومما يسترعى النظر ، أن معظم ما كتب في رثاء فرنسا وفي الدفاع عن ذلك الرثاء — في اللغة العربية — يظهر آثاراً افتتاناً غريباً بها ومغالاة شديدة في اعتبارها أرقى شعوب الأرض على الإطلاق ...

فقد قال أحد الكتاب « إن المساواة في العدل الاجتماعي لم نكد نتحقق في أمة من الأمم في كل أدوار التاريخ إلا في فرنسا » ... كما قال كاتب آخر : « لم يثر ثائر على الاستعمار في مشرق أو مغرب إلا وفي روجه جذوة من النار التي أوقدها باريس للغضب على استعباد الشعوب » .

وقال أحدهم « لا أعرف فرداً قد ربي فيه الوازع الشخصي بمثل ما ربي في الرجل الفرنسي » .

وقد صاح أحد الكتاب قائلاً : « إن قوة الألمان فيض من قوتك يا باريس » كما خلع كاتب آخر على فرنسا سلسلة نعمت خاطرة مثل « مبعث النور والحربة ومهد الاختراعات »

إن معظم هذه المدعيات تحالف الحقائق الراهنة بمغالاة صريحة ، كما ان ما تبقى منها ينطوي على مغالاة صارخة ...

فإن التاريخ يذكر لنا عشرات الثورات التي قامت قبل ثورة باريس المملومة . والفرنسيون أنفسهم يعترفون بأنهم تأخروا كثيراً في تحقيق المساواة في العدل الاجتماعي . كما أن معظم مفكرهم يشكون بمرارة ضعف الوازع الشخصي في نفوس